مقـــدمـــة

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على أشرف الأنبياء والمرسلين، نبينا محمد عليه وعلى آله أفضل الصلاة وأتم التسليم **أما بعد**:

الحجة هي عصب الحياة في هذا العصر، حيث تمثل الحجج والدعاوى البضاعةَ الخفية الحاضرة في أسواق الناس، وطرقهم، ومجالسهم، وحين نكون أمام حقل معرفي، وظاهرة تواصلية كبرى كـ«الحِجاج» فإننا نكون أمام حقل اكتسح ـ بلا ريب ـ عوالم الحياة بشتى أشكالها ومجالاتها؛ إذ لا غنى عن الحجاج في مجال الدعاية والإشهار، وفصول التعليم، ومنابر السياسة، وقاعات المحاكم، وبرامج الإعلام، وفي شتى ميادين الفكر والتربية والفقه والثقافة، وهكذا في تواصل إنساني لساني لا ينفك عن الحجاج، ولا يتخلى عنه: «وهل هناك تواصل من غير حِجَاج؟!»[1].

(١) موسوعة الحجاج، مفهومه ومجالاته، إعداد وتقديم حافظ علوي ١/ ١.

هذا، ويأتي الاهتمام بضرورة صناعة الملكة الحجاجية لمتلقي هذا العصر الراهن، لعدة اعتبارات حضارية وفكرية، منها ما يكتنز به الفعل الحواري الحجاجي من الفضائل الحضارية والإنسانية، فالحجاج على نحو عام لا يوجد إلا حيث يوجد الاختلاف، ومن ثم فهو قائم على اعتبار الآخر لا إلغائه، كما أن الحجاج سبيل إلى معرفة الحقيقة من طرق متعددة؛ «لأن الحق هو نفسه ـ على خلاف الرأي السائد ـ ليس ثابتًا لا يتغير، بل أصله أن يتغير ويتجدد، وما كان في أصله متجددًا، فلا بد أن يكون الطريق الموصل إليه متعددًا، وحيثما وجد التعدد في الطرق، فثمة حاجة إلى قيام حوار بين المتوسلين بها أو السالكين لها»[1].

يضاف إلى ذلك أمر مهم وهو أن تكوين الملكة الحجاجية، وممارستها بوعي بين المتلقين، في شتى السياقات الثقافية والفكرية والاجتماعية والإعلامية، من شأنها أن تفضي إلى تقليص شقة الخلاف السلبي، المبني على النبذ والإقصاء بين أطراف الخطاب، هو ما أشار إليه بتأكيد الدكتور طه عبد الرحمٰن: «وذلك لدخول هذه الأطراف في استفادة بعضها من بعض، حيث إن هذا الطرف أو ذاك قد يأخذ في الانصراف عن رأيه متى تبين له، عند مقارعة الحجة بالحجة، ضعفُ أدلته عليه، ثم يتجه تدريجيًا إلى القول برأي من يخالفه، أو يأخذ على العكس من ذلك في تقوية أدلته متى تبينت له قوة رأيه، مستجلبًا مزيدًا من

(١) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، د. طه عبد الرحمٰن: ٢٠.

الاهتمام من لدن مخالفه، حتى ينتهي هذا المخالف إلى القبول والتسليم»[1].

إذا تبين ما سبق، تبقى الإشارة الأخيرة هنا في هذه المقدمة إلى أن تجديد الصلة بالممارسة الحجاجية والتناظر الكلامي، يعيد الاعتبار، ويحيي رميم تلك الممارسات الحجاجية، وقيم الاختلاف والتفاعل الحواري، التي اغتنى بها تراثنا الفكري والثقافي العربي، حيث كانت العملية الحجاجية تُدار بين الفقهاء والمحدثين والفلاسفة والأصوليين والبلاغيين واللغويين والمفسرين، على مختلف مشاربهم وانتماءاتهم وتوجهاتهم الثقافية بكل وعي ورقي، على الوجه الذي أدى إلى تعميم المعرفة، وتعميق الثقافة الحوارية لدى المتلقين، في تلك الحقبة الزمنية، حيث لم تكن الممارسة الحجاجية بين صنّاع الخطاب في التراث العربي: «أداةً للاشتغال بالمنازعة المقصودة لذاتها، وإنما كانت وسيلة من وسائل تنمية المعرفة الصحيحة، وممارسة العقل السليم»[2].

وإذا كان الحجاج على هذه الماهية والأهمية، فما هو الحجاج؟ وما صلته بفروع المعرفة وأنساق الثقافة؟ وما تاريخه التكويني؟ هذا من الجانب النظري للسؤال، ومن جانبه التطبيقي: ما هي أهم منطلقات الحجاج؟ وما أبرز تقنياته؟

---

(١) في أصول الحوار وتجديد علم الكلام: ٢٠.

(٢) المرجع السابق: ٢١.

يأتي هذا الكتاب مجيبًا عن تساؤلات تتعلق بـ(تكوين ملكة الحجاج والتناظر الفكري)، من خلال جملة من المحاور والإشارات والتقنيات العملية الحجاجية، التي سأحاول أن أربطها بثلاث أفكار مركزية، هي:

١ ـ الحرص على ارتباط الكتاب بالجانب (التكويني) في الحجاج والتناظر الكلامي، الذي يمثل مشغلًا مهمًا من مشاغل العمل والبناء في فضاءات الخطاب الشرعي الفقهي، والفكري تاريخيًا وواقعيًا، دون الخوض في تفاصيل نظرية أو أكاديمية لها صلةٌ بالحجاج، ولكن ليس لها صلة بالبعد (التكويني) فيه.

٢ ـ الحرص على تكثيف الجانب العملي التطبيقي من خلال الشواهد والأمثلة من السياق الفكري الفقهي القريب، من خلال الكشف عن تقنيات الحجاج، والمنطلقات التي ينطلق منها أطراف العملية الحجاجية، والقيم الأخلاقية واللغوية، وغيرها مما هو مستودعٌ في دفائن الكتب والدراسات الحجاجية القديمة والحديثة، دون التركيز على الجوانب النظرية الأخرى التي لا تثري جانب التكوين لدى المتلقي، مثل: أهمية الحجاج، أهداف الحجاج، إلا ما له أهمية كبرى لا غنى للمتلقي عنها مثل: مفهوم الحجاج والمصطلحات الوظيفية المحيطة به، أو عرض للبعد التكويني في نشأة الدرس الحجاجي.

٣ ـ الحرص في الجانب التطبيقي على النصوص ذات المضمون (الفقهي، الفكري)، وهي النصوص التي يُتوقع أنها من اهتمامات المتلقي لهذا العمل.

وقد كان الحرص في هذا الكتاب ـ قدر المستطاع ـ على الجمع بين استحضار المبادئ والمنطلقات والتقنيات الحجاجية مادةً وموضوعًا، كما هو الحرص على الطي والاختزال، وضغط بعض الأفكار طريقةً وأسلوبًا، عبر تقنيتي الخلاصة والحذف من تقنيات الكتابة العلمية، على نحوٍ أحسب أنه لا يخيّب أفق الانتظار لدى القارئ كثيرًا!

وختامًا أشكر أخي وصديقي الفاضل الأستاذ ياسر بن ماطر المطرفي، على دعمه وتحفيزه لهذا العمل وصاحبه، متابعةً دؤوبةً، وسؤالًا دائمًا، وحرصًا شديدًا، أراه، وأسمعه، وأحس به!

والشكر المضاعف لمركز نماء، الذي عوّدنا، وهو في موسمه الثالث، على المبادرات الفكرية والعلمية الإيجابية الثرية، أقول ـ في عامه الثالث ـ، وحزمة من الملفات التي أثارها، والدراسات والبحوث والتقارير التي قدمها في سلاسل متنوعة، والبرامج الفضائية التي بثها وأنتجها؛ كالسحاب لا يترك قمة، ولا يهمل سفحًا، إلا غشيه من غيثه هذا ما غشيه، فنهرٌ من الشكر والدعوات لهم، ولكل الفريق العامل معهم.

د. محمد بن سعد الدكان
Msds555@gmail.com
الرياض